

أثر الشهوات في الصدِّ عن دين الله وتعبيد العبيد للعبيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد: فإن القلوب تمرض وتموت كما تمرض الأبدان وتموت، وينتابها من الوهن والضعف كما يتتاب الأبدان، كما قال تعالى: {أَوَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} الأنعام:122. أي من كان قلبه ميتاً بالكفر فأحياه الله تعالى بنور الإيمان والتوحيد، فيمشي به بين الناس على بصيرة وعلم، يدرك الأشياء على حقيقتها كمن كان قلبه ميتاً بالكفر وأثر البقاء في ظلمات الكفر والشرك فما هو بخارج منها ليتمكن من رؤية النور والحق على حقيقته.. فهو لو رأى يرى كمن يرى في الظلمات بعضها فوق بعض لا يحسن التمييز بين الأشياء، ولا التفريق بين الحق والباطل، ولا بين المعروف والمنكر.. لا يستوي من كذلك ومن أحيا الله قلبه وبصيرته بالإيمان مثلاً.

وقال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} البقرة:10. أي في قلوبهم مرض الكفر والنفاق فزادهم الله مرضاً أي كفراً ونفاقاً بسبب أنهم كانوا يكذبون الرسل وما نزل عليهم من الآيات.

وأمرض القلوب تأتي من جهتين: من جهة الشهوات، ومن جهة الشبهات.

والذي يعنينا في بحثنا هذا الأمراض التي تأتي من جهة الشهوات، وبيان أثرها على القلوب، وفي الصد عن دين الله، وتعبيد العبيد للعبيد!

فأقول: الشهوات تكون مصدراً وسبباً لأمراض القلوب عندما يتم تلبية رغباتها ونزواتها عن غير طريق الشرع، وعندما يتوسع المرء في تلبية رغباتها أكثر من القدر المشروع.. إلى أن يصبح بكلية منقاداً لشهواته ونزواته، يعمل لها، تقوده ولا يقودها، لا يعرف غاية إلا كيف يشبعها ويروي ظمأها الذي لا ينطفئ.. فكلما

أعطاهما ما تريد من الوقود ازدادت اشتعالاً وقالت له هل من مزيد.. ولا يملئ بطن ابن آدم إلا التراب (1) !

عندما تستحكم الشهوات من ابن آدم إلى هذا الحد فإنها تهلكه وترهقه، وتضعف قلبه وإيمانه بقدر تمكنها منه واستغلالها على عرش قلبه، كما أنها تُضعف عنده الإرادة - بقدر كذلك - على النهوض بالحقوق وتبعاته أو حتى الالتفات إليه والإنصات له.. وقد تصل إليه إلى حد تحقق فيه العبودية لمخاليق هي أقل منه قدراً وشأناً.. وتجعله أثيراً لكثير من الأشياء لا فكاك له من الانقياد والخضوع والتذلل لها، والوقوع في عبادتها من دون الله تعالى ولو بوجه من الوجوه!

وإليك بعض النصوص الشرعية التي تدل على هذه المعاني الأنيقة الذكر:

الدليل الأول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يقتل وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد " متفق عليه.

أخرج البخاري في صحيحه عن عكرمة قال: قلت لابن عباس كيف يُنزع الإيمان منه؟ قال: هكذا - وشبك بين أصابعه ثم أخرجها - فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبك بين أصابعه.

وقال ابن عباس: ينزع منه نور الإيمان في الزنا، فإن زال رجع إليه الإيمان.

قال ابن حجر في الفتح 12/59: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " قيد نفي الإيمان بحالة ارتكابه لها، ومقتضاه أنه لا يستمر بعد فراغه وهذا هو الظاهر ا-هـ.

¹ الشهوات تأتي من جهات ثلاث: من جهة الفرج والبطن، ومن جهة المال والحرص عليه، ومن جهة الرياسة والشرف وحب الشهرة والزعامة والإمارة والحرص عليها.. وهي من أشدها أثراً على الإنسان وأخلاقه ودينه، حتى أننا نجد - من أجل الرياسة والزعامة - من يُضحى بآبائه وبمصالح دينه وأمته وإخوانه، ويدخل في موالة الكفرة والمشركين مقابل أن يُساعدوه فيما هو عليه من الملك أو يقصد إليه من الملك والرياسة والزعامة!

والشيطان يأتي الإنسان من هذه الجهات الثلاثة.. فمن بأس منه من جهة شهوة البطن والفرج جاءه من جهة شهوة حب المال وكنزه وطغيانه، ومن لم يفلح معه من هذه الجهة ولا تلك جاءه من جهة شهوة حب الشرف والشهرة والرياسة والزعامة.. ومنهم من يأتيه من الجهات الثلاثة ويفلح معهم من كل الجوانب والطرق.. وهؤلاء لا تسأل عن هلكتهم وقد ضياعهم!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه " أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.

قلت: وإن كنا نعتقد - كما دلت على ذلك نصوص عدة - أن هذه الذنوب الأنفة الذكر لو جاءت منفردة من غير استحلال أو تحسين لا تُخرج صاحبها من الملة.. ولكن في الحديث دلالة رهيبه على ما تفعله تلك الذنوب من أثر في الإيمان والاعتقاد لحظة ارتكابها!

ثم هي تفعل هذا الفعل في القلوب وفي الإيمان إن فعلت مرة واحدة.. فتأمل لو فعلت مرات ومرات إلى درجة الإدمان.. كم سيكون حجم الدمار والأمراض التي ستصيب القلب والإيمان..؟!

لا شك أنها ستصل بصاحبها إلى حدٍّ لم يعد يقوى معه على القيام بالواجبات الشرعية، ولو قام بها أو بعضها فهو لا يقوم بها على الوجه المطلوب.. بل قد يصل به الحال إلى درجة أنه لم يعد يملك القدرة على الإنصات للخطاب الشرعي.. ولو أنصت للخطاب الشرعي فهو لا يكاد يفقه منه شيئاً إلا ما شاء الله (2).

والأبلغ من هذا وذاك أن يصل إلى درجة لا يجب معها أن ينصت إلى الخطاب الشرعي حتى لا تتفتق عليه جراحات قلبه وأمراضه، فيدرك خطورة الواقع الذي هو عليه.. وهذا حال أكثر الذين تستحوذ عليهم الآثام والمعاصي فإنهم لا يحبون أن يذكرهم أحد بمعاني الإيمان والطهر والاستقامة فإن ذلك يفسد عليهم متعتهم البهيمية فيما هم فيه من الانغماس بالشهوات، كما قال تعالى عن قوم لوط لما شاعت فيهم فاحشة اللواط واستحوذت عليهم: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون. أنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ {54-56}. فذنبه عليه السلام أنه يتطهر ويأمرهم بالطهر، ولا يشاركهم ما هم فيه من رجس.. وهذا كافٍ بأن يفسد

² لو تأملت حال الناس وموقفهم من الخطاب الشرعي - قال الله قال رسوله - عندما يبلغهم تجد فريقاً منهم وقافاً عند حدود وأحكام الخطاب، ويُلقي كل سمعه للخطاب ودلالاته، فيستفيد ويفيد.. ومنهم من يستمع إلى الخطاب لكنهم أقل استجابة من الفريق الأول، وأقل استفادة وإفادة.. ومنهم من يستمع إليه وهم يلعبون لا يفقهون من دلالاته وأحكامه شيئاً، ولا يريدون أن يفقهوا شيئاً.. وهذا التفاوت بين هذه الأصناف من الناس في التأثر بالخطاب الشرعي مرده كله إلى القلوب ودرجة ما فيها من الحياة أو المرض!

وهؤلاء قد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لهم مثلاً فقال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيةً قبلت الماءً فأنبتت الكلاً فأنبتت الكلاً والغشيب الكثير، وكانت منها أجادبٌ أمسكت الماءً فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ورعوا، وإصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً.. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" متفق عليه.

عليهم حياتهم البهيمية التي تترد عليهم بالنكد والعذاب والدمار..
وحتى لا يحصل لهم ذلك حكموا عليه وعلى من آمن معه بالإبعاد
والطرده والإخراج من قريته وبلدته.

فهم أمروا بإخراجه وطرده حتى لا يقع نظرهم عليه فيتذكرون
تعاليمه وأوامره ونواهيته.. فينغص ذلك عليهم ما هم فيه من فجور!

كما في الحديث فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال: " أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله " (3) ، فالمؤمن - من
دون أن يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فإن
منظره يُذكر القوم بالله تعالى، وبقائمة طويلة من معاني الطهر
والفضيلة.. لذا هم لا يُطبقون النظر إليه (4).

قلت: كذلك مفهوم المخالفة يقتضي أن النظر إلى صور
الباطل على اختلاف أشكالها وأنواعها، فإنها تُذكر بما تنطوي عليه
من معانٍ وصور باطلة.. وبالتالي فإن القلوب تتأثر سلباً من إدامة
النظر إليها.. من هنا جاءت أوامر الشريعة تحض على غض
الطرف عن المنكرات!

عودة إلى الحديث: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن.. "
فهو وإن عاد إليه إيمانه بعدما يقطع عن الوزر فإنه لا يعود إليه
سالمًا كما كان قبل أن يقترف ذنبه وجرمه.. فإنه يعود إليه ضعيفاً
معلولاً مصاباً بجراحات لا تلتئم إلا بعد زمن، وبعد تقديم الطاعات
والصدقات، والتوبة والاستغفار فور وبعد وقوعه في الذنب
والجرم!

والإيمان في القلب مثله في ذلك مثل أي عضو من أعضاء
الجسد يتعرض للمرض أو التلف؛ فلو كسرت اليد مثلاً.. فإنه من
المستحيل أن تترد إليها عافيتها كما كانت قبل الكسر إلا بعد زمن
من العلاج، وبعد قيام التمارين والرياضات الضرورية لها.

الدليل الثاني: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن
العبد إذا أخطأ خطيئة - وفي رواية: إذا أذنب ذنباً - نكتت في قلبه
نكتة سوداء، فإذا نزع واستغفر وتاب سُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها
حتى تعلق قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: {كلا بل ران على قلوبهم
ما كانوا يكسبون} (5).

تأمل كيف أن الذنب الذي يرتكب على الجوارح كيف يترد
على القلب بنكتة سوداء تعلقه وتبصر عليه تؤثر على عمله
ووظيفته الإيمانية، فإن تكررت هذه الذنوب - من دون أن يتبعها

³ أخرجه المروزي، والطبراني، السلسلة الصحيحة: 1733.

⁴ إذا عرفت ذلك فلا تعجب عندما تسمع عن تلك الدول - التي
تزعج الحرية - عندما تضيق ذرعاً ببعض الطالبات لارتدائهن
الحجاب وتصدر بحقهن قرار الفصل من المدرسة إلى أن يخلعن
الحجاب، كما حصل في فرنسا وغيرها!

⁵ صحيح سنن الترمذي: 2654.

توبة واستغفار - شكلت طبقة سميكة من النكت السوداء قد تحيل بين القلب وبين وظيفته الإيمانية العقدية!

هذه الطبقة من الران تحيل بين القلب وبين فهم الخطاب الشرعي فضلاً عن الانقياد له، والالتزام بدلالاته وتوابعه.. ولو وصل الخطاب الشرعي - قال الله قال رسوله - فإنه لا يتحرك له ولا يتأثر به، فهو يصل إليه كأحرف مجردة من المعاني لا تعني له بشيء.. لذا نلاحظ عندما تُتلى عليه آيات القرآن الكريم - التي لو نزلت على الجبال لخشعت وتصدعت من خشية الله - يستمع إليها باستخفاف وبرودة قاتلة وكأنها لا تُتلى عليه.. وذلك كله مرده إلى الران الذي يعلو قلبه!

ثم تأمل قوله صلى الله عليه وسلم: " فإذا نزعَ واستغفر وتاب سَقِلَ قلبه.. "؛ فهو لكي يثقل قلبه بالإيمان وترتد إليه عافيته، لا بد بعد أن يقلع عن الذنب من أن يستغفر ويتوب، ويصدق في ذلك!

وفي رواية عند مسلم: " تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عَوْدًا عَوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكَّتَ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكَّتَ فِيهِ نَكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: أَيْضٌ يُمَثِّلُ الصَّفْلَ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مَرِبَادًا - أَي صَارَ كُلُّونَ الرَّمَادِ مِنَ الرِّبْدَةِ - كَالْكُوزِ مَهْجِيًا - أَي مَائِلًا مَنكُوسًا - لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مَنكِرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ ".

فهو لفساد قلبه بما كسبت يده من المعاصي والذنوب.. يصل إلى درجة لم يعد يرى فيها الأشياء على حقيقتها التي هي عليه.. لم يعد يرى المعروف معروفًا، ولا المنكر منكراً إلا ما يراه هوأه من ذلك؛ فالمعروف ما يراه هوأه معروفًا ولو كان في دين الله تعالى منكراً، والمنكر عنده ما يراه هوأه منكراً وإن كان في دين الله تعالى معروفًا.. فالتحسين والتقبيح مرده إلى هوأه وما أشرب من هوأه.. وليس إلى دين الله تعالى وشرعه.

والمرء إن وصلت به شهواته إلى هذا الموصِل يُصبح عبداً متألهاً لهوأه منقاداً له ولحكمه.. وعليه وعلى أمثاله يُحمل قوله تعالى: {أرأيت من اتخذ إلهه هوأه أفأنت تكون عليه وكيلاً} الفرقان:43. وقوله تعالى: {ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هوأه وكان أمره فرطاً} الكهف:28. أي وصار أمر دينه ودينه إلى ضياع وخراب بسبب اتباعه لهوأه!

الدليل الثالث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه " (6). أي لو فلتت الذئباب الضارية الجائعة بين قطع من الغنم فما هي بأفسد لها وأشد فتكا بها من أثر

⁶ أخرجه أحمد، والنسائي، والترمذي وقال: حسن صحيح.

الحرص على المال، وحب الرياسة والزعامة والإمارة على دين المرء!

فالمرء لا يزال يحرص على المال وعلى تكثيره وتجميعه إلى أن يصبح عبداً مأسوراً له، لا هم له إلا كيف يجمع المال، ويكثر رأس المال، فهو يتواجد حيث يتواجد الدرهم والدينار، ويوالي

ويواد ويبش حيث يكون ويوجد الدرهم والدينار.. فهو يدور مع الدرهم حيث دار، ولاءً وبراءً⁽⁷⁾.. ولو كان عنده وادٍ من ذهب لتمنى وطلب الآخر، لا حاجة سوى حب الكنز والتجميع والتكثير!

فالمرء عندما يصل إلى هذه الحالة يصبح عبداً لماله لا لربه كما قال صلى الله عليه وسلم: " تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار..".

وقال صلى الله عليه وسلم: " من سعى مكثراً - أي للمال - ففي سبيل الطاغوت، وفي رواية: ففي سبيل الشيطان⁽⁸⁾. فهو في سبيل الطاغوت لأنه يصدده عن العبادة وعن القيام بواجبات هذا الدين وما يملكه عليه.

وكذلك شهوة الحرص على الشرف والرياسة والزعامة فهي أشد على صاحبها من شهوة الحرص على المال.. حيث نجد أن صاحبها يضحي بالمال وبكل عزيز عليه من أجل ذلك، ولو استلزم الأمر أن يدخل في تحالفات مشبوهة مع أعداء الأمة - ويقدم لهم كل ما يطلبونه منه - مقابل أن يثبتوا عرشه وحكمه، أو يحققوا له ما يصبو إليه من الزعامة والرياسة والإمارة.. فلا يتردد في ذلك لحظة⁽⁹⁾!!!

⁷ تأمل كم هم الذين يعملون كجنود أوفياء عند الطاغوت، ويستمتتون في الدفاع عنه وعن نظامه.. مقابل راتب زهيد من المال يعطاه، وكم هم مشايخ السوء الذين يجادلون عن الطواغيت والظالمين، ويضفون عليهم الشرعية.. من أجل راتب زهيد من المال يرمى إليهم... وكم هؤلاء المدعاة الذين يسكتون عن الحق ويؤثرون الصمت أمام الباطل الذي يروونه خوفاً على فوات الامتيازات والرواتب التي يمنحهم إياها الطاغوت.. رأيت كيف أن شهوة الحرص على المال تصد عن دين الله تعالى، وكيف توقع صاحبها في عبادة وموالاته الطاغوت!!

⁸ السلسلة الصحيحة: 2232.

⁹ تأمل هذه المبالغ الطائفة التي ينفقها النائب أو الحزب في حملاته الدعائية لكي يحقق ما يصبو إليه من الزعامة والشرف.. وحتى يُقال عنه الأستاذ النائب فلان.. حيث وجدنا منهم من يجند النساء والفتيات يرسلونهن لدور الناس من أجل ذلك.. وهذا كله يحصل في بلاد المسلمين!!

بل ووجدنا من التجمعات والأحزاب الإسلامية التي تدخل في تحالفات باطلة مع أحزاب الكفر والردة في المنطقة من أجل أن يحققوا لأنفسهم شيئاً من هذه المكاسب التي تدخل كلها في شهوة حب الشرف والرياسة والزعامة.. فتأمل!!

الدليل الرابع: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن " (10).

فإن قيل: كيف يكون كعابد وثن.. وهناك نصوص عديدة تفيد أن أصحاب الكبائر يُتركون للمشيمة إن شاء الله عذبهم، وإن شاء غفر لهم وعفا عنهم..؟!

أقول: يُحمل الحديث على وجهين وتفسيرين:

أحدهما: أنه يُراد به التخليط وبيان فداحة ذنب الإدمان على شرب الخمر؛ أم الخبائث!

والثاني: أنه يُطلق ويُراد به ظاهره؛ وذلك عندما يصل المدمن إلى درجة يكون فيها منقاداً بكليته للخمر، أو لغيرها من المواد المخدرة، انقياد العبد لمعبوده.. يوالي ويُعادي فيها، يُحارب ويُسلم لأجلها، لا يستطيع الفكك من سلطانها وطغيانها.. يُضحى بكل ما يملك من أجل أن يؤمن لنفسه جرعات من الخمر أو المخدرات (11)!

فحينئذ - بهذا الوصف - يكون الخمر بالنسبة لصاحبه وثن، وهو بالنسبة له كعابد وثن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.. والله تعالى أعلم.

ونحو الحديث المتقدم قوله صلى الله عليه وسلم: " لا يدخل الجنة مدمن خمر " (12). ونحو التفسير المتقدم يُفسر ويُحمل هذا الحديث والله تعالى أعلم.

أما إن أردت أن تتكلم عن طواغيت الحكم في ديار المسلمين فحدث عنهم ولا حرج.. حيث ما من حاكم إلا وتراه مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً - من خلال معاهدات الدفاع المشترك، وغيرها من الاتفاقيات السرية الخفية - بدولة من دول الاستكبار العالمي، يقدم لها كل ما تريد وتطلب من امتيازات وسياسات كافرة تمارس في بلاده وعلى شعبه.. من أجل أن يحافظوا على عرشه ومملكه، وحكمه!!

¹⁰ أخرجه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: 677.

¹¹ نلاحظ ذلك عند مدمني المخدرات كيف يصل بهم الحال إلى درجة أنهم لا هم لهم في الحياة إلا كيف يؤمنون لأنفسهم جرعات المخدرات ولو أدى ذلك لأن يبيعوا كل ما يملكون، أو يرتكبوا جريمة القتل والقتال، وقطع الطريق!

وقد ذكر لي أحد الأخوان أنه كان قد ابتلي بالسجن لمدة طويلة في سجون اليهود.. وكيف كان اليهود يستغلون حاجة السجناء إلى الدخان، إلى أن تمكنوا من تحنيد بعضهم كمخبرين وجواسيس على إخوانهم في السجن مقابل أن يزيدوهم بعض السجائر في اليوم عن سواهم.. هذا فيما يتعلق بالدخان، وهو أقل أثراً بكثير على صاحبه من بقية أنواع المخدرات والمفترات، والمسكرات.. فتأمل!!

¹² أخرجه ابن حبان، السلسلة الصحيحة: 678.

والذي نريده هنا من هذا الحديث والذي قبله أن يظهر للقارئ أثر الإدمان على الشهوات على دين وإيمان صاحبها.. وكيف أنها تصده عن دين الله تعالى، وعن القيام بحق الله تعالى عليه، وكيف توصله إلى درجة أن يكون كعابد وثن!!

الدليل الخامس: قال صلى الله عليه وسلم: " حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات " متفق عليه.

الجنة مطلب الجميع، وما من أحد يسمع بها وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين إلا وتمنى واستشرف أن يكون من أهلها.. ومن ذا الذي لا يتمناها وفيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..؟!

ولكن لما أحفها الله تعالى بالمكاره كالصبر على الطاعات، وبعض العبادات التي فيها نوع مشقة على النفس كالصلاة وما يتبعها من وضوء وتطهر في الأيام الباردة.. وكذلك الجهاد في سبيل الله وما يتبعه ويترتب عليه من قتل وقتال، وترك لدفء الإوطان.. وغيرها من الطاعات التي تستلزم مخالفة النفس الأمارة بالسوء.. فلما حُفَّت الجنة بهذه المكاره وغيرها زهد بها الناس، وأعرضوا عنها، وتمنوا غيرها!!

وكذلك نار جهنم - أعاذنا الله منها - التي يزيد حرّ نارها على مجموع نار الدنيا سبعين ضعفاً.. ما من أحد يسمع بها، وما أعد الله فيها لأهلها من المجرمين.. إلا وتعوذ بالله منها ومن شرها، وتمنى أن لا يكون من أهلها!

ولكن لما أحفها الله تعالى بالشهوات.. استخف بها معظم الناس، ورضوا بأن يكونوا من أهلها ووقودها!

هذا المعنى بوضحه حديث آخر برواية أخرى، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لما خلق الله الجنة أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها قال: فرجع إليه وقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. قال: فأمر بها فحُفَّت بالمكاره فقال: فارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّت بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد حُفَّت أن لا يدخلها أحد قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فإذا هي يركب بعضها بعضاً فرجع إليه فقال: وعزتك لقد حُفَّت ألا يسمع بها أحد فيدخلها فأمر بها فحُفَّت بالشهوات فقال ارجع إليها فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها " (13).

وهذا المعنى - أعني به أثر الشهوات في الصد عن دين الله - قد أدركته شياطين الإنس والجن، فعملوا ولا يزالون يعملون على إثارة الشهوات بكل أنواعها وفنونها في كل درب ووادٍ من أجل

¹³ أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

اصطياد الناس وجذبهم إلى باطلهم وشركهم ومجونهم، وصددهم عن طريق الهداية والحق!

كثير من الأنظمة الطاغية - كما في بلادنا - من ذوي البصر القصير يستخدمون سياسة البطش والتنكيل في إكراه وقهر شعوبهم على الاتجاه والسير في طريق معين دون طريق آخر.. فينجحون في جانب ويفشلون في جوانب أخرى، وقد ترد هذه السياسة على رؤوسهم، وتجنبي عليهم خلاف ما خططوا ودبروا.. ومن الأنظمة - الأكثر دهاءً - من يتعد عن هذه السياسة؛ أعني سياسة البطش والتنكيل.. ويبرأهون على نجاح سياسة إثارة جيوش من الشهوات والنزوات في وجه الحق، ومن أجل تسيير شعوبهم في الاتجاه الذي يريدون كما هو حاصل في دول أوربا وأمريكا ومن هنا نحوها.. فينجحون وللأسف في كثير مما خططوا له، ولا يسلم من شرهم ومخططاتهم إلا من رحم الله !!

وحتى ندرك هذه الحقيقة فلتأمل هذا الكم الهائل من الشهوات والمثيرات التي تحيط بالإنسان الأوربي، والتي تستغرق منه كل أنفاسه ووقته ولو عاش أحدهم ألف سنة!

تأمل هذا الكم الهائل من دور الدعارة.. تأمل هذا الكم الهائل من البارات ودور القمار والميسر.. ثم تأمل ما ينشر ويبيث عبر الاف القنوات المرئية التي لا وظيفة لها سوى تدمير الاخلاق ويث ما يثير الشهوات ويثعل نارها ووقودها.. وكذلك هذا الكم الهائل من الفساد والإضلال الذي ينشر في مجلات القوم وجرائدهم.. أضف إليها دور السينما والمسارح.. أضف إليها الوسائل المدمرة للأخلاق التي يتلقاها التلاميذ وهم في مقاعدهم الدراسية منذ المرحلة الابتدائية إلى ما بعد المرحلة الجامعية.. أضف إليها وسائل الترفيه والتسلية الجذابة التي ينفق عليها بالملايين والتي تناسب جميع الأعمار.. هذا الكم الهائل من المكر والكيد وغيره مما لم نذكر الذي لا يعلم كنه ونوعه إلا الله تعالى.. يحيط بالإنسان الأوربي الذي يجعله يسير باتجاه معين - كما خطط له الساسة والاحبار والرهبان - رغماً عن أنفه وهو راضٍ!

يسير في الاتجاه الذي يريدون - رغماً عن أنفه - ثم يُخيل إليه - هذا المسكين المغفل - بعد ذلك أنه الإنسان الحر في الوجود.. وهو في حقيقته عيد مسير لآلهة عديدة - وهو يعلم أو لا يعلم - أحط منه قدراً وشأناً!

كيف يقدر هذا الإنسان الأوربي أن يلتفت إلى الحق، أو يسمع للحق، أو يقرأ عن الحق.. وهو محاط بهذا الكم الهائل من الشهوات التي تجعله يسير بخلاف الطريق الذي يحب ويريد!

كيف يستطيع أن يختار الإسلام.. أو أن يعرف عنه شيئاً.. وهو محاط بهذا السياج الضخم من الشهوات الذي يستغرق منه كل أنفاسه وجهده، وتفكيره..؟!!

وهكذا خطط له السياسة.. والأخبار والرهبان.. وراء كل شرٍ وداء.. وهكذا أرادوا له أن يكون !!

قال تعالى: {وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا} سبأ:33. فهو ليس مكر الليل وحسب ثم يستريح في نهاره.. أو مكر النهار وحسب ثم يستريح في ليله.. لا، بل هو مكر الليل والنهار، مكر على مدار الساعة والوقت.. ما هو هدفه وغايته.. أن نكفر بالله تعالى ونجعل له الأنداد والشركاء من الآلهة المزيفة التي يصطنعوها بأيديهم وأهوائهم.. والتي هي أخط قدراً وشأناً من الإنسان ذاته!!

عندما يختار الإنسان الأوربي شيئاً.. لا يكون قد اختاره لأنه مقتنع بهذا الشيء بعيداً عن ضغط الشهوات، وضغط مكر الليل والنهار.. لا، وإنما يختاره لأن السياسة والأخبار والرهبان سيروه في اتجاه - من خلال هذا الكم الهائل من الشهوات - يلزمه في نهاية المطاف أن يختار هذا الشيء لا سواه!!

هذا المكر.. وأعني به أثر الشهوات في الصد عن دين الله تعالى.. قد تفتن له السياسة الأغبياء في بلادنا فراحوا يستوردون بقصد من بلاد الغرب كل ما يحيي ويشير الشهوات ويقوي نأرها وفتنتها.. تارة تحت زعم ضرورة الانفتاح على الحضارات والثقافات.. وتارة تحت زعم العمل بالديمقراطية التي تضمن كامل الحرية للشهوات أن تسير في الاتجاه التي تريد.. وتارة.. وما ذلك في حقيقته إلا من أجل أن يصدوا الناس عن دين الله تعالى، ويقتلوا فيهم إرادة النهوض بهذه الأمة لتستأنف حياتها الإسلامية من جديد.. ولكي يشغلوهم عن الالتفات إلى خيانات الطغاة الحاكمين، وعن ظلمهم وفسادهم الذي لا يمكن أن يتم كل ذلك إلا في غفلة من الشعوب تعيش سكرة الشهوات.. تعيش هم إشباع الشهوات التي لا يمكن أن تشبع !!

علامات مرض القلوب بالشهوات.

فإن قيل هل لمرض القلوب بالشهوات علامات يُعرف المرض بها..؟

أقول: نعم، لمرض القلوب بالشهوات علامات يُعرف بها، فإن وجدت وجد المرض ودلت عليه ولا بد.. أهمها:

1- عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

من علامات أمراض القلوب بالشهوات أن لا يقوى المريض على النهوض بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيصيبه في ذلك فتور عجيب، بحسب وقدر مرضه.. ثم كيف ينهض لتغيير شيء هو يأتيه، أو يأمر بشيء هو لا يأتيه؟!!

قال صلى الله عليه وسلم: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " مسلم.

دل الحديث أن قوة الإيمان وعافيته في القلب تتفاوت قوة وضعفاً بحسب تعامله مع المنكر وطريقة تغييره له.. أعلاه أن ينكر المنكر باليد.. وأضعفه أن يقتصر إنكاره للمنكر على القلب وذلك أضعف الإيمان.. وليس وراء إنكار المنكر في القلب عافية ولا إيمان، كما جاء ذلك مفصلاً في حديث آخر.

قال صلى الله عليه وسلم: " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " مسلم.

ليس وراء إنكار القلب وجهاده للمنكر من الإيمان ما يزن حبة خردل لأنه ليس وراء إنكار القلب من الدرجات سوى الرضى بالمنكر والاطمئنان له.. والرضى بالكفر كفر.

وهذه حالة لو وصل إليها القلب - وهي الرضى بالكفر وعدم إنكاره - يكون فيها ميتاً لا حياة فيه البته!

2- استقباح المعروف، واستحسان المنكر.

ومن علاماته كذلك أنه يفسد ذوقه عليه إلى درجة أنه لم يعد يحسن التمييز بين الأشياء.. لا يحسن التمييز بين الحق والباطل.. وبين القبيح والحسن.. وبين المعروف والمنكر.. وبين الشرك والتوحيد.. فهو يرى المعروف منكراً، والمنكر معروفاً.. ويرى الحق باطلاً، والباطل حقاً.. فيستقبح الحسن، ويحسن القبيح!!

وهذه أسوأ حالة يصل إليها قلب الإنسان.. حيث بها تتعطل جميع وظائفه المعنوية التي أنيطت به.. قال ابن مسعود: هلك من لم يعرف قلبه المعروف، وينكر المنكر.

وقيل له من ميت الأحياء؟ قال رضي الله عنه: الذي لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً.

وفي الحديث فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من سرتهم حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن " ، مفهوم المخالفة يقتضي أن من لا تسره حسنته ولا تسينه سيئته فهو ليس بمؤمن.

قال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى 7/41: فإن لم يكن مبعوضاً لشيءٍ من المحرمات أصلاً، لم يكن معه إيمان أصلاً أ- هـ.

3- الإعراض عن الدواء.

قد يشعر المريض بمرضه.. وقد يعرف الدواء أو يُعرّف به.. لكنه يعجز عن تناوله؛ لأن في تناوله مخالفة الهوى والإقلاع عن الانسياب وراء الشهوات، وعمّا كان قد أدمن على تعاطيه.. وهذا بحد ذاته يجد في مخالفته صعوبة كبيرة لا يقوى عليها إلا من رحم الله.. فتراه لذلك يخلد إلى المرض وإلى شهواته ويستسلم لها، ويُعرض عن الدواء النافع!

ولو أردت أن تحمله على الدواء بالقوة تراه يُظهر لك إعراضاً ومقاومة لا تجدها في مريضٍ تريد أن تجري له عملية جراحية في بعض أعضاء جسده!

4- سرعة التأثر بالفتن.

ومن علامات مرض القلب بالشهوات سرعة التأثر بكل ما يعترضه من فتن.. فهو - لمرض قلبه بالشهوات - لا يقوى على المقاومة لو داهمته أدنى فتنة مهما صغرت.. بل تراه يطرب ويرقص لكل فتنة تعترضه.. وهو المراد من قوله تعالى: {فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض} الأحزاب: 32. فهو فقط لو سمع امرأةً تخضع بالقول - ولو عن غير قصد - تراه يطمع بها، وتحدثه نفسه الأمانة بالسوء في أن يقع في السوء.. فكيف لو ظهر منها ما هو فوق الخضوع بالقول.. كيف لو قالت له هيت لك.. فهو لا شك أسرع في الوقوع في الفتنة والعياذ بالله.

كيف العلاج..؟

قد يرد سؤال: أليس لأمراض القلوب بالشهوات دواء وعلاج.. وإن كان يوجد، فإين يكمن؟

أقول: من نعم الله على عباده أنه تعالى ما من داء - عضواً كان أم معنوياً - إلا وأوجد له الدواء والعلاج الشافي والكافي، عرفه من عرفه وجهله من جهله.. إلا الموت - هازم وقاهر اللذات والشهوات - فلا دواء له يحيي صاحبه بعد أن يلقى حتفه.

والعلاج من أمراض الشهوات يكمن في النقاط التالية:

1- لا بد من مخالفة الهوى وعصيانه ابتداءً وإن وجد المريض في ذلك للوهلة الأولى صعوبة.. فإن هذه الصعوبة سرعان ما تضعف وتذهب - ليتبعها راحة وسعادة دائمتين إن شاء الله - مع

وجود الإصرار على مخالفة الهوى والشهوات.. فالمدواء وإن كان
مرا، ومزارته تؤذي المريض لكنها لا شيء - من حيث الأثر والزمن
- قياساً لأذى الشهوات والانسياب وراءها.

فما من ذنب أو معصية تُترك لله تعالى إلا وأورثه الله مكانها
في قلبه حلاوة ولذة هي أفضل وأعلى بكثير من لذة المعصية التي
سرعان ما تنقلب على صاحبها إلى نقمة وعذاب!

قال تعالى: {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن
الهوى. فإن الجنة هي المأوى} النازعات:40-41. فمن أراد أن
يكون من أهل الجنة والنجاة لا بد له من أن ينهى نفسه عن
الهوى.. والمراد به هنا الشهوات والتوسع فيها بالحرام.

2- العمل على المزيد من التفقه بالتوحيد.. الذي يزيد إيمانه،
ويزيد معرفته بربه تعالى وبأسمائه وصفاته العليا.. فيرتد ذلك عليه
شعوراً ويقينا بعظمة الخالق تعالى وبمراقبته الدائمة له.. وعلمه
أن الله يراه حينما يقبل على المعاصي والشهوات.. وأن الله تعالى
قادر عليه وهو يمارس المعاصي والشهوات.. فينردع وينطوي
على نفسه، ويستحيي من ربه!

واعلم أن المعاصي لا تمارس إلا لضعف عند المرء في
توحيده وإيمانه، وفي حالة يغيب فيها عن النفس اليقين بأسماء
الله وصفاته.. وأن المرء كلما قوي إيمانه وتوحيده كلما قلت
معاصيه، وقلت طاعته لهواه ولشهوته.

3- الإقبال على القرآن الكريم بصدق تلاوة وفهماً وعملاً..
فالقرآن فيه الدواء والشفاء لكل داء، كما قال تعالى: {قل هو
للذين آمنوا هدىً وشفاء} فصلت:44. وقال تعالى: {وننزل من
القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين} الإسراء:83. وقال تعالى:
{يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور
وهدىً ورحمة للمؤمنين} يونس:57.

قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية:
فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء
الدنيا والآخرة. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضع على دأئه
بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم
يُقاوم الداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء
الذي لو نزل على الجبال لصدعها - ٥.

4- ومما يساعد في ذلك مطالعة الكتب النافعة التي تحكي
سيرة الأوائل من السلف الصالح، وتبين حالهم من الورع والزهد
والتقوى.. وعلى رأسهم وأولهم سيرة المصطفى صلى الله عليه
وسلم.. وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده رضي الله عنهم
أجمعين.

5- ومن ذلك كذلك مصاحبة وملازمة الأقران الصالحين إن
وجدوا، فلا تجالس إلا صالحاً، ولا تؤاكل إلا تقياً.. وإياك وأقران

الفجور والسوء.. فكما أن الصاحب الصالح لا يدل صاحبه إلا على الخير وما فيه النفع والفائدة.. كذلك قرين السوء فإنه لا يدل صاحبه إلا على السوء والفجور والمنكر.. ولا يرى منه إلا ما يسيء ويشين.. ومثلهما كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: "إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُجذيك، وإما أن تتباع منه، وإما أن تجد ريحاً طيبةً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة". وقال صلى الله عليه وسلم: "الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل".

نسأل الله تعالى أن يحفظنا بحفظه، وأن يرحمنا برحمته.. وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنه تعالى سميع قريب مجيب..
وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
عبد المنعم مصطفى حليلة
أبو بصير
16/9/1421 هـ
12/12/2000 م.
www.abubaseer.com



تم تنزيل هذه
المادة من
منبر التوحيد
والجهاد

<http://www.tawhed.ws>
<http://www.almaqdes.com>
<http://www.alsunnah.info>